فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا، وينقلب إلى أهله مسرورًا، [وأما من أوتي كتابه بشماله أو من وراء ظهره][1]، فسوف يدعو ثبورًا، ويصلى سعيرًا، ويقول: يا ليتني لم أوتَ كتابيه، ولم أدرِ ما حسابيه؛ قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩].

وأما قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾؛ فقد قال الراغب: ((أي: عمله الذي طار عنه من خيرٍ وشرٍّ))[2].

ولكن الظاهر أنَّ المراد بالطائر هنا نصيبه في هذه الدنيا، وما كُتِب له فيها من رزق وعمل[3]؛ كما في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ ﴾[الأعراف:٣٧].

يعني: ما كُتِبَ عليهم فيه.

[الإيمان بالحساب]

(وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلائِقَ، وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ المؤمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ؛ كَمَا

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾: (أي: بشماله من وراء ظهره، تثنى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك)؛ انظر: ((تفسير ابن كثير))، سورة الانشقاق، آية (١٠).

(٢) وهذا الذي رجحه ابن كثير في تفسير الآية.

(٣) انظر: ((زاد المسير)) (٥/١٥)، وقد ذكر لمعنى الآية أربعة أقوال، وهذا الذي رجَّحه الشارح هنا، نسبه ابن الجوزي لأبي عبيدة وابن قتيبة.

وُصِفَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَأَمَّا الْكُفَّارُ؛ فَلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُ لَا حَسَنَاتَ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدُّ(١) **أَعْمَالُهُمْ، فَتُحْصَى، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا**(٢)).

قوله: ((**وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلائِقَ** ...)) إلخ؛ المراد بتلك المحاسبة تذكيرهم وإنباؤهم بما قدَّموه من خير وشرٍّ أحصَاه الله ونسوه؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٠٨].

وفي الحديث الصحيح: ((مَن نوقِشَ الحساب عُذِّب)). فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله! أوليس الله يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑧﴾ [الانشقاق:٨]؟ فقال: ((إنَّما ذلك العرض، ولكن مَن نوقش الحساب يهلك))(٣). [العرض]

وأمَّا قوله: ((**وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ المؤْمِنِ**))؛ فقد ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُدني منه عبده المؤمن، فيضع عليه كَنَفَه، ويحاسبه فيما بينه وبينه، ويقرِّره بذنوبه، فيقول: ألم تفعل كذا يوم كذا؟ الم تفعل كذا يوم كذا؟ حتى إذا قرَّره بذنوبه، وأيقن أنَّه قد هلك؛ قال له: سترتُها

---

(١) في الأصل: تُعَدَّدُ.

(٢) زاد في الأصل: وَيُجْزَوْنَ بِهَا.

(٣) رواه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦)، وأبو داود، والترمذي.

عليك في الدّنيا وأنا أغفرها لك اليوم[١].

وأمَّا قوله: ((**فَإِنَّهُ لَا حَسَنَاتَ لَهُمْ**))؛ يعني: الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[الفرقان:٢٣]، وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [إبراهيم:١٨].

والصحيح [أن][٢] أعمال الخير التي يعملها الكافر يجازى بها في الدنيا فقط، حتى إذا جاء يوم القيامة وجد صحيفة حسناته بيضاء.

وقيل: يخفَّف بها عنه من عذاب غير الكفر.

[صفة الحوض]

(**وَفِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ الْحَوضُ الْمَوْرُودُ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، ماؤُه أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهْرٌ، مَن يَّشْرَبُ مِنْهُ شَرْبَةً؛ لَا يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا**[٣]).

وأمَّا قوله: ((**في عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ...**))؛ فإنَّ الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حدَّ التواتر، رواها من الصحابة بضعٌ وثلاثون صحابيًّا[٤]، فمَن

(١) رواه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).
(٢) لفظة يقتضيها السياق، ليست في أصل الشرح؛ كما ذكر ذلك الأنصاري في طبعة الإفتاء.
(٣) يشير إلى ما رواه مسلم في صحيحه (٢٣٠٠) عن أبي ذر رضي الله عنه.
(٤) ذكر ذلك الحافظ في ((الفتح)) (٤٦٧/١١)، وقال: ((منهم في الصحيحين ما ينيف على العشرين، وفي غيرهما بقية ذلك)).

أنكره؛ فأَخْلِق به أن يُحالَ بينه وبين وروده يوم العطش الأكبر، وقد ورد في أحاديث: ((إنَّ لكل نبيٍّ حوضًا))[(١)].

ولكن حوض نبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أعظمها وأحلاها وأكثرها واردًا.

جعلنا الله منهم بفضله وكرمه.

[صفة الصراط]

((وَالصِّرَاطُ مَنْصُوبٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ [عَلَيْهِ][(٢)] عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالرِّيحِ، ومِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَرِكَابِ الإِبِلِ، ومِنْهُم مَن يَعْدُو عَدْوًا، وَمِنْهُم مَن يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُم مَن يَزْحَفُ زَحْفًا، وَمَنْهُم مَن يُخْطَفُ خَطْفًا وَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّ الْجِسرَ عَلَيْهِ كَلَالِيبُ تَخْطِفُ النَّاسَ

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٤٣) وقال: (هذا حديث غريب وقد روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مرسلًا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح) والحديث رواه الطبراني في ((الكبير)) (٢٥٦/٧)، والبخاري في ((التاريخ)) (٤٤/١)، وابن أبي عاصم في ((السنة)) (٧٣٤)؛ كلهم من طريق الحسن عن سمرة. وفي سماع الحسن من سمرة خلاف، والحسن البصري مدلِّس، ولم يصرِّح هنا بالسماع. قال ابن كثير في نهاية البداية والنهاية (٣٧١/١): مرسل حسن، وصحح ابن حجر في الفتح (٤٧٥/١١) إسناد المرسل وضعف إسناد المرفوع، وكذا شيخه العراقي في تخريج الإحياء (٢٩٢/٥)، والحديث حسَّنه الألباني بمجموع طرقه في ((الصحيحة)) (١٥٨٩)، وانظر: ((الفتح)) (٤٦٧/١١).

وعن سماع الحسن من سَمُرة. انظر: ((المعجم الكبير)) للطبراني (٢٣١/٧-٢٣٦-هامش)؛ ففيه تفصيلٌ جيِّد.

(٢) زيادة من الأصل.

بِأَعْمَالِهِم، فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ.

فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ؛ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِم مِّن بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا؛ أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ[١]).

قوله: ((وَالصِّرَاطُ مَنْصُوبٌ...)) إلخ. أصل الصراط الطريق الواسع؛ قيل: سمي بذلك لأنَّه يسترط السابلة؛ أي: يبتلعهم إذا سلكوه، وقد يستعمل في الطريق المعنوي؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣].

والصراط الأخروي الذي هو الجسر الممدود على ظهر جهنَّم بين الجنَّة والنَّار[٢] حقٌّ لا ريب فيه؛ لورود خبر الصادق به، ومَن استقام على صراط الله الذي هو دينه الحق في الدنيا استقام على هذا الصراط في الآخرة، وقد ورد في وصفه أنَّه: ((أدق من الشعرة، وأحدُّ من السيف))[٣].

---

(١) روى البخاري نحوه (٦٥٣٥).

(٢) لم أجد في السنة ما يثبت أنه بين الجنَّة والنَّار، والذي ثبت أنه بين ظهراني جهنم. انظر: ((الفتح)) (١٣/٤١٩، ٢/٢٩٢).

(٣) (لم يصحَّ مرفوعًا). لذلك قال البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٢/٢٤٧): ((وهذا اللفظ من الحديث لم أجده في الروايات الصحيحة)) اهـ. ولكن روى مسلم في ((صحيحه)) (١٨٣) عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري أنه قال: ((قلنا: يا رسول الله! أنرى ربنا؟..)). إلى أن قال: ((قال أبو سعيد: بلغني أن الجسر أدقُّ من الشعرة، وأحد من السيف)). ورواه ابن منده في ((كتاب الإيمان)) (٢/٨٠٢) بتمامه وبالسند نفسه، ولكن قال: ((قال سعيد بن أبي هلال: بلغني أن الجسر أدق من الشعرة، وأحد من السيف)). وقد وصله البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٢/٢٤٦) عن أنس عن =

[أول الناس دخولًا الجنَّة]

(وَأَوَّلُ مَن يَسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ مُحَمَّدٌ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم، وَأَوَّلُ مَن يَّدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُهُ)

قوله: ((وَأَوَّلُ مَن يَّسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ مُحَمَّدٌ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم))؛ يعني: أول من يحرك حلقها طالبًا أن يُفْتَح له بابها؛ كما قال عليه السلام: ((أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأنا أوَّل مَن تنشقُّ عَنه الأرض ولا فخر، وأنا أوَّل من يحرِّك حِلَق الجنَّة، فأدخلها ويدخلها معي

= النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه سعيد بن زربى ويزيد الرقاشي، وهما ضعيفان؛ لذا قال الحافظ في ((الفتح)) (١١/٤٥٤): ((وفي سنده لين)). وروي أيضًا عن زياد النُّمَيْري عن أنس مرفوعًا.

وزياد ضعيف؛ لذا قال البيهقي في ((الشعب)) (٢/٢٤٨): ((وهي أيضًا رواية ضعيفة (٢/٢٤٨). ومن عجائب التصحيف أنها تصحَّفت في ((كشف الخفاء)) (٢/٢٤ رقم١٥٩٩) إلى: ((وهي أيضًا رواية صحيحة))!!

وروي عن عبيد بن عمير عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مرسلاً، وكذا عن سعيد بن أبي هلال رواية أخرى مرسلة أو معضلة. انظر: ((الفتح)) (١١/٤٥٤).

ولكن ثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ((والصراط كحد السيف، دحضٌ مزلةٌ)). أخرجه الحاكم (٢/٢٧٦). وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا اللفظ، وقال السيوطي في ((البدور السافرة)) (١٥٨): طريقه صحيحة متصلة رجالها ثقات، وصححه الألباني في ((صحيح الترغيب والترهيب)) (٣٦٢٩).

وثبت أنه كحد الموسى من حديث سلمان مرفوعًا: ((... ويوضع الصراط مثل حد الموسى)). أخرجه الحاكم (٤/٥٨٦)، وقال: صحيح على شرط مسلم، وقال ابن رجب في ((التخويف من النَّار)) (٢٢٤): المعروف أنه موقوف على سلمان الفارسي من قوله، وقال الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٩٤١): إسناده صحيح موقوفاً وله حكم الرفع.

فقراء أمَّتي))[(١)].

يعني: بعد دخول الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يكون فقراء هذه الأمَّة أول الناس دخولًا الجنَّة.

[أنواع لشفاعات]

(وَلَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي الْقِيَامَةِ ثَلاثُ شَفَاعَاتٍ:

أَمَّا الشَّفَاعَةُ الأُوْلَى؛ فَيَشفَعُ فَي أَهْلِ الموْقِفِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَرَاجَعَ الأَنْبِيَاءُ؛ آدَمُ، وَنُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسى ابْنُ مَرْيَمَ عَنِ الشَّفَاعَةِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ.

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَن يَّدْخُلُوا الْجَنَّة.

وَهَاتَانَ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ.

---

(١) (إسناده ضعيف). رواه الترمذي (٣٦١٦)، والدارمي (١/٣٩) (٤٧)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي سنده زمعة بن صالح، وهو ضعيف. وقال الترمذي: ((هذا حديث غريب))، وقال ابن كثير في التفسير (٢/٣٧٥): (غريب من هذا الوجه)، وضعفه الألباني في ((ضعيف سنن الترمذي)) (٣٦١٦).

لكن يشهد لأوله أحاديث أخرى: منها حديث: ((أنا أكثر الأنبياء تبعًا، وأنا أول مَن يقرع باب الجنَّة))، وحديث: ((آتي باب الجنَّة يوم القيامة، فأستفتح، فيقول الخازن: مَن أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أمرتُ، لا أفتح لأحد قبلك))؛ رواهما مسلم (١٩٧).

ويشهد لوسطه حديث أنس مرفوعًا: ((أنا أوَّل مَن يأخذ بحلقة باب الجنَّة، فأقعقعها))؛ رواه أحمد والترمذي والدارمي وغيرهم، وفي صحته نظر.

ويشهد لآخره ما رواه أحمد وابن ماجه والترمذي واللفظ له من رواية أبي هريرة: ((يدخل الفقراء الجنَّة قبل الأغنياء بخمس مئة عام)). قال الترمذي: (حسن صحيح)، وانظر: ((صحيح سنن الترمذي)) للألباني (٢/٢٧٥).

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَن لَّا يَدْخُلَهَا، وَيَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَن يَّخْرُجَ مِنْهَا.

وَيُخْرِجُ اللهُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا بِغِيرِ شَفَاعَةٍ؛ بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيَبْقَى فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُنْشِئُ اللهُ لَهَا أَقْوَامًا فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ)

[معنى الشفاعة] وأمَّا قوله: ((**وَلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي الْقِيَامَةِ ثَلاثُ شَفَاعَاتٍ**))[(١)]؛ فأصل الشفاعة من قولنا: شفع كذا بكذا إذا ضمَّه إليه، وسمي الشافع شافعًا لأنَّه يضمُّ طلبه ورجاءه إلى طلب المشفوع له.

والشفاعة من الأمور التي ثبتت بالكتاب والسنة، وأحاديثها متواترة؛ قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

فنفي الشفاعة بلا إذن إثباتٌ للشفاعة من بعد الإذن.

قال تعالى عن الملائكة:﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم:٢٦].

فبيَّن الله الشفاعة الصحيحة، وهي التي تكون بإذنه، ولمن يرتضي قوله وعمله.

---

(١) عن الشفاعة انظر كتاب ((الشفاعة عند أهل السُّنَّة والرد على المخالفين فيها)) للدكتور ناصر الجديع، وكتاب ((القيامة الكبرى)) للشيخ عمر الأشقر (ص١٧٣-١٩١).

وأما ما يتمسَّك به الخوارج والمعتزلة في نفي الشفاعة من مثل قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر:٤٨]، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا﴾ [البقرة:١٢٣]، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الشعراء:١٠٠].

إلخ؛ فإنَّ الشفاعة المنفيَّة هنا هي الشفاعة في أهل الشرك، وكذلك الشفاعة الشركية التي يثبتها المشركون لأصنامهم، ويثبتها النصارى للمسيح والرهبان، وهي التي تكون بغير إذن الله ورضاه.

[الشفاعة الأولى]

وأمَّا قوله: ((**أَمَّا الشَّفَاعَةُ الأُوْلَى؛ فَيَشفَعُ فَي أَهْلِ المَوْقِفِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَهُمْ**))؛ فهذه هي الشفاعة العظمى، وهي المقام المحمود الذي يغبطه به النبيُّون، والذي وعده الله أن يبعثه إياه بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩].

يعني: يحمده عليه أهل الموقف جميعًا.

وقد أمرنا نبيُّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إذا سمعنا النداء أن نقول بعد الصلاة عليه: ((اللهم ربَّ هذه الدعوة التَّامَّة، والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدتَه))[1].

[الشفاعة الثانية]

وأمَّا قوله: ((**وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَن يَّدْخُلُوا الْجَنَّة**))؛ يعني: أنَّهم - وقد استحقُّوا دخول الجنَّة - لا يؤذن لهم بدخولها

---

(١) رواه البخاري (٦١٤)، وأبو داود، والترمذي، والنسائي.

إلا بعد شفاعته[(١)].

وأمَّا قوله: ((وَهَاتَانَ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ))؛ يعني: الشفاعة في أهل الموقف، والشفاعة في أهل الجنَّة أن يدخلوها.

وتنضمُّ إليهما ثالثة، وهي شفاعته في تخفيف العذاب عن بعض[(٢)] المشركين؛ كما في شفاعته لعمه أبي طالب، فيكون في ضحضاح من نار؛ كما ورد بذلك الحديث[(٣)].

[الشفاعة الثالثة]

وأمَّا قوله: ((وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ)) إلخ. وهذه هي الشفاعة التي ينكرها الخوارج والمعتزلة؛ فإنَّ مذهبهم أنَّ مَن استحقَّ النَّار؛ لا بدَّ أن يدخُلَها، ومن دخلها؛ لا يخرج منها لا بشفاعة ولا بغيرها.

---

(١) لما رواه مسلم (١٩٥)، عن حذيفة بن اليمان وأبي هريرة رضي الله عنهما مرفوعًا: ((يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تُزْلَفَ لهم الجنَّة، فيأتون آدم، فيقولون: يا أبانا! استفتح لنا...)). ثمَّ ذكر في الحديث إتيانَهم إبراهيم وموسى وعيسى... إلى أن قال: ((فيأتون محمدًا صلى الله عليه وسلم، فيقوم، فيؤذن له)).

(٢) (لم أعلم أن ذلك ورد إلا في عمه أبي طالب فإذا كان كذلك فالأولى أن يقال: وهي شفاعته في تخفيف العذاب عن عمه لأن كلمة بعض ربما يظن أنها تتناول غير أبي طالب). (ابن عثيمين)

(٣) من ذلك ما رواه البخاري (٣٨٨٥)، ومسلم (٢١٠) عن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم – وذكر عنده عمه أبو طالب – فقال: ((لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة...)) الحديث.

والأحاديث المستفيضة المتواترة تردُّ على زعمهم وتبطله(١).

(وَأَصْنَافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِنَ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ المنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالآثَارِ مِنَ الْعِلْمِ المأْثُورِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ(٢)، وَفِي الْعِلْمِ الموْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي، فَمَنِ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ).

وأمَّا قوله: ((وَأَصْنَافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِنَ الْحِسَابِ...)) إلخ؛ فاعلم أنَّ أصل الجزاء على الأعمال خيرها وشرَّها ثابتٌ بالعقل كما هو ثابتٌ بالسمع، وقد نبَّه الله العقول إلى ذلك في مواضع كثيرة من كتابه؛ مثل قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥]، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة:٣٦].

فإنَّه لا يليق في حكمة الحكيم أن يترك الناس سُدًى مهمَلين، ولا يؤمرون، ولا يُنْهَون، ولا يُثابون ولا يُعاقبون؛ كما لا يليق بعدله وحكمته أن يسوي بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص:٢٨].

---

(١) منها ما رواه البخاري (٦٥٦٦)، عن عمران بن حصين مرفوعًا: ((يخرج قومٌ من النَّار بشفاعة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فيدخلون الجنَّة، يسمون الجهنَّميين)).

(٢) في الأصل: والأثارة من العلم المأثورة عن الأنبياء.

فإنَّ العقول الصحيحة تأبى ذلك وتنكره أشدَّ الإنكار.

وكذلك نبَّهَهُم الله على ذلك بما أوقعه من أيامه في الدنيا من إكرام الطائعين، وخذلان الطاغين.

وأما تفاصيل الأجْزية ومقاديرها؛ فلا يدرك إلا بالسمع والنقول الصحيحة عن المعصوم الذي لا يَنْطِقُ عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله.

[الإيمان بالقدر]

(وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَينِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ).

والإيمان بالقدر خيره وشره من الله تبارك وتعالى أحدُ الأركان الستَّة التي يدور عليها فَلَكُ الإيمان؛ كما دلَّ عليه حديث جبريل وغيره، وكما دلَّت عليه الآيات الصريحة من كتاب الله عزَّ وجلَّ.

وقد ذكر المؤلِّف هنا أنَّ الإيمان بالقدر على درجتين، وأنَّ كلًّا منهما تتضمن شيئين:

(فَالدَّرَجَةُ الأُولَى: الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى [عَلِيمٌ بِالْخَلْقِ وَهُمْ][١] عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلًا وَأَبَدًا، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِم مِّنَ الطَّاعَاتِ وَالمعَاصِي وَالأَرْزَاقِ وَالآجَالِ، ثُمَّ كَتَبَ اللهُ فِي اللَّوْحِ المحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ[٢].

---

(١) في الأصل: عَلِمَ مَا الخَلْقُ.

(٢) في الأصل: الخَلائِقِ.

فَأَوَّلَ[١] مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

فَمَا أَصَابَ الإِنْسَانَ لَمْ يَكُن لِّيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُن لِّيُصِيبَهُ، جَفَّتِ الأَقْلَامُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠]، وَقَالَ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢].

وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلاً: فَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ المحْفُوظِ مَا شَاءَ.

وَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الْجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ؛ بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، (فَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ)[٢]. وَنَحْوَ ذَلِكَ...

فَهَذَا التَّقْدِيرُ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنْكِرُهُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ[٣]).

---

(١) منصوب على الظرفية.

(٢) في الأصل: بِكَتْبِ رزقِهِ، وأجلِهِ، وعملِهِ، وَشَقِيٍّ أَوْ سعيدٍ.

(٣) هذا التقسيم بهذه الصورة وجَعْل القدر أربع مراتب لم يكن معروفًا من قبل، وقد يكون أول من فصَّله هو شيخ الإسلام رحمه الله، فزعم بعض المغرضين أنها بدعة ابتدعها، لكن من قرأ كلام السَّلف علم أنهم يعنون بالإيمان بالقدر الإيمان بهذه المراتب، وعدم الإيمان بواحدة =

فالدرجة الأولى تتضمَّن:

أَوَّلًا: الإيمان بعلمه القديم المحيط بجميع الأشياء، وأنَّه تعالى عَلم بهذا العلم القديم الموصوف به أزلًا وأبدًا كلَّ ما سيعمله الخلق فيما لا يزال، وعلم به جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال.

فكل ما يوجد من أعيان وأوصاف ويقع من أفعال وأحداث فهو مطابقٌ لما علمه الله عزَّ وجلَّ أزلاً.

ثانيًا: أنَّ الله كتب ذلك كله وسجَّله في اللوح المحفوظ، فما علم الله كونه ووقوعه من مقادير الخلائق وأصناف الموجودات وما يتبع ذلك من الأحوال والأوصاف والأفعال ودقيق الأمور وجليلها قد أمر القلم بكتابته؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «قدَّر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»(١).

[العرش والقلم]

وكما قال في الحديث الذي ذكره المؤلف: «إنَّ أول ما خلق الله القلم؛ قال له: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»(٢).

و(أوَّلَ) هنا بالنصب على الظرفية، والعامل فيه (قال)؛ أي: قال له ذلك أول ما خلقه.

= منها لا يحقِّق الإيمان بالقدر، والمراتب هي: علم الله بكل شيء، وكتابته، ومشيئته النافذة وأنه خالق كل شيء. فلا حرج من التقسيم والتبويب من أجل التوضيح.

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣)؛ بلفظ: «كتب الله مقادير..».

(٢) رواه بنحوه أحمد (٢٢٧٥٧)، وأبو داود (٤٧٠٢)، والترمذي (٢١٥٥)، وغيرهم.

قال الترمذي: حسن غريب، وصححه ابن جرير الطبري في «التاريخ» (٣٢/١)، وابن العربي في «أحكام القرآن» (٣٣٥/٢)، واالألباني في صحيح الجامع (٢٠١٧).

وقد روي بالرفع على أنَّه مبتدأ، وخبره القلم.

ولهذا اختلف العلماء في العرش والقلم؛ أيهما خُلَقَ أولاً[(١)].

وحكى العلامة ابن القيِّم في ذلك قولين، واختار أنَّ العرش مخلوقٌ قبل القلم. قال في ((النونية))[(٢)]:

((وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فِي الْقَلَمِ الَّذي كُتِبَ الْقَضَاءُ بِهِ مِنَ الدَّيَّانِ
هَلْ كَانَ قَبْلَ الْعَرْشِ أَوْ هُوَ بَعْدَهُ قَوْلانِ عِنْدَ أَبِي الْعَلَا الْهَمَدَانِي
وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلُ لأَنَّهُ [وَقْتَ][(٣)] الْكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَرْكَانِ
وَكِتَابَةُ الْقَلَمِ الشَّرِيفِ تَعَقَّبَتْ إِيجَادَهُ مِنْ غَيْرِ فَصْلِ زَمَانِ))

وإذا كان القلم قد جرى بكلِّ ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة بكل ما يقع من كائنات وأحداث؛ فهو مطابق لما كتب فيه، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما وغيره[(٤)].

---

(١) للشيخ الألباني تخريج لطيف للحديث السابق، رجَّح فيه زيادة (الفاء) أو (ثم) عند قوله: ((قال له: اكتب))، وعليه فقد رجَّح أسبقية خلق القلم على العرش، وأسبقية خلق العرش على الكتابة، فراجِعْه إن شئت في ((شرح الطحاوية)) (ص٢٦٤)، وانظر ((السلسلة الصحيحة))(١٣٣). وانظر كتاب ((القدر)) للقرشي (هامش صفحة١٢٢).

(٢) انظر: ((شرح النونية)) للهراس (١/١٦٥)، ولابن عيسى (١/٣٧٤).

(٣) في المرجعين السابقين: [قبل]؛ بدل: [وقت].

(٤) جزء من حديث رواه أحمد في المسند (١/٢٩٣) (٢٦٦٩)، والترمذي (٢١٤٤)، والحاكم (٦٢٣/٣)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١/٢١٦) (١٩٥). من حديث جابر بن عبدالله =

وهذا التقدير التابع للعلم القديم تارة يكون جملةً؛ كما في اللوح المحفوظ؛ فإنَّ فيه مقادير كل شيء، ويكون في مواضع تفصيلًا يخصُّ كل فردٍ؛ كما في الكلمات الأربع التي يؤمر الملك بكتابتها عند نفخ الروح في الجنين؛ يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌّ أم سعيد(١).

فهذا تقديرٌ خاصٌّ، وهذا التقدير السابق على وجود الأشياء قد كان ينكره غلاة القدرية قديمًا؛ مثل: معبد الجهني(٢)، وغَيلان الدِّمشقي(٣)، وكانوا يقولون: إنَّ الأمر أُنُف.

ومنكر هذه الدرجة من القدر كافر؛ لأنَّه أنكر معلومًا من الدين بالضرورة، وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع.

(وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَهِيَ مَشِيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ،

= مرفوعًا: «لا يؤمن عبد، حتى يؤمن بالقدر خيره وشره من الله، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه». انظر: «صحيح الجامع» (٧٤٦١).

كما رواه أبو داود، والترمذي، وغيرهما؛ عن ابن عباس، وأبي بن كعب، وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم مرفوعًا وموقوفًا.

(١) لما رواه البخاري (٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣)، وهو جزء من حديث ابن مسعود المشهور: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه...» الحديث.

(٢) هو معبد بن عبد الله بن عليم الجهني البصري، أول من قال بالقدر، نهى الحسن عن مجالسته، وقال: «هو ضالٌّ مضلٌّ». قتله الحجَّاج سنة (٨٠هـ)، وقيل: صَلَبه عبد الملك بن مروان. انظر: «ميزان الاعتدال» (٤/١٤١)، و«الأعلام» (٧/٢٦٤).

(٣) هو غيلان بن مسلم بن أبي غيلان، أبو مروان الدمشقي، كاتب بليغ، ثاني مَن تكلم في القدر، أخذه عن معبد الجهني، صَلَبه هشام بن عبد الملك بدمشق بعد عام (١٠٥هـ). انظر: «الأعلام» (٥/١٢٤).